إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد العاشر – صيف ١٣٩٢ش/ حزيران ٢٠١٣م
صص ٤٣ ـ ٦٨

دراسة موازنة لصورة الروم فى الأشعار الحربية لأبى تمام وأبى فراس الحمدانى

عبدالغنى إيروانى‌زاده*
زهرا باقرى ورزنه**

الملخص

وقعت حروب كثيرة بين العباسيين، والروم، والخرميين وبين الحمدانيين والروم أيضا، إضافة إلى حروب القبائل بعضها مع بعض؛ يتعرّض هذا المقال لما وقع من الحروب بين العرب والروم من خلال دراسة قصائد حربية للشاعرين البارزين فى القرن الثالث الهجرى والقرن الرابع الهجرى واللذين ترعرعا فى بيئتين بينهما تشابه كبير، والإسلام دينهما والروم أعداؤهما، هما أبوتمام الطائى الذى شارك فى الحروب بلسانه وأبو فراس الحمدانى الذى شارك فيها بكلّ كيانه، أمّا أبوتمام فالقصائد التى يصور فيها حروب العرب مع الروم هى فى الأصل من قصائده المدحية، لذلك يستهلّها بالمقدّمة الغزلية أو بالمقدمة الطّللية، ولا بدّ أن تكون الصور التى يرسمها للقواد ممّا يرضيهم وقد استطاع أن يوفّى القوّاد حقّهم، خاصّة هؤلاء الّذين أغفل التاريخُ ذكرَهم، من مثل: أبى سعيد الثّغرى. أمّا أبوفراس فى قصائده الحربية فيطرق الموضوعَ بسرعة دون اتّكاء على المقدّمات، وهذه القصائد فى الأصل من قصائده المدحية والفخرية؛ فتعتبر قصائد هذين الشاعرين من الوثائق الهامّة للتاريخ والشعر.

الكلمات الدليلية: أبوتمام، أبو فراس الحمدانى، الأشعار الحربية، الروم.

---

*. جامعة أصفهان، إيران. (أستاذ مشارك)
**. جامعة أصفهان، إيران. (طالبة مرحلة الماجستير)
Zahrabagheri5@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩١/١١/١٤ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٨ش

المقدمة

إنّ الظروف السياسية، والاجتماعية، والجغرافية، والحضارية فرضت أن تكون هناك علاقـات بين العربى والأجنبى، وعلاقـة العرب بالأقوام الآخريـن فى البلاد الأخرى علاقة قديمة ترجع إلى ماقبل الإسـلام، فالعرب اتصلـوا بالفرس، والروم، والأحباش وهذه العلاقات كانت فى المجالات الاقتصادية، والثقافية، والدينية، والسياسـة. فبعض الشـعراء الجاهليين استحضروا صورة الفرس فى أشعارهم من مثل الأعشى، أمّا صورة الروم فتبرز فى الشعر العربى منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى العصر العباسى، فنرى أكثر حضورها فى أشعار أبى تمام، والمتنبى، وأبى فراس الحمدانى وفى دراستنا هذه نركّز على ما صّوره الشـاعران أبوتمام وأبوفراس الحمدانى من المعارک مع الروم، وهزائم الروم، وجبن قوادهم، وفرارهم من ساحة الوغى، وأسر رجالهم، وسبى نسائهم.

وفى مجال دراسـتنا هذه لم نعثر على أى مقال أو رسـالة تكون قد تطرّقت إلى موضوعنا المذكور ولكن وجدنا مقالا موضوعه "الحرب والقتال فى شعر أبى تمام" للدكتور مزهر السودانى، فالباحث فيه يتحدث عن الحروب الخارجية التى وقعت بين العرب، والروم، والخرميين وعن الحروب الداخيلة ويكتفى أحيانا بذكر مطلع القصائد دون الخوض فى محتواها.

صورة الروم فى الأشعار الحربية لأبى تمام

إن الصراع بين العرب والروم اتّخذ بعداً محسوسـا فى العصر العباسـى وأثّر هذا فى أبىتمام وألهب خياله فاسـتطاع أن يفتح «باباً جديداً فى الشـعر العربى هو شعر الحرب، ويفتق فى نطاق الموضوع معانى مستحدثة لم تُعرَف من قبل.» (الشكعة، ١٩٨٦م: ٦٦٩)

انتصار العرب على الروم بقيادة المأمون

لَعَلّ أوّلَ شعرٍ قاله أبوتمام فى تصوير الصراع بين العرب والروم قصيدته التى صوّر فيها معركةً خاضها المأمونُ ضد الروم وفتح فيها "حصن قرّة"، إنّه يبدأ القصيدةَ بالإلمام بالدّمن والأطلال ويتبع ذلک بنسـيب دقيق ثم يخلص بعـد ذلک إلى مدح المأمون، ثم يصف بعد ذلک قوةَ جيش المأمون وكثرةَ عدده حتى لقد ملأ الفضاء بحيث لايستطيع المرء أن يدرک أولَـهُ من آخره، ومن خلال وصف الجيش يصف الخيلَ، ثم ينطلق إلى وصف المعركة وما

قد وقع على الأعداء من هزيمة واستسلام؛ فالشاعر يصفُ الجيشَ قائلاً:

فَنَهَضْتَ تَسْحَبُ ذَيْلَ جَيْشٍ سَاقَهُ حُسْنُ الْيَقِينِ وَقَادَهُ الْإِقْدَامُ
مُثْعَنْجِرٌ[١] لَجِبٌ[٢] تَرَى سُلَّافَهُ[٣] وَلَهُمْ بِمُنْخَرِقِ الْفَضَاءِ زِحَامُ
مَلَأَ الْمَلَا عُصَبًا فَكَادَ بِأَنْ يُرَى لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا لَهُ قُدَّامُ
بِسَوَاهِمٍ لُحُقِ الْأَيَاطِلِ[٤] شُزَّبٍ[٥] تَعْلِيقُهَا الْإِسْرَاجُ وَالْإِلْجَامُ
وَمُقَاتِلِينَ إِذَا انْتَمَوْا لَمْ يُخْزِهِمْ فِي نَصْرِكَ الْأَخْوَالُ وَالْأَعْوَامُ
سَفَعَ[٦] الدُّؤُوبُ وُجُوهَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ وَأَبُوهُمْ سَامٌ أَبُوهُمْ حَامُ
تَخِذُوا الْحَدِيدَ مِنَ الْحَدِيدِ مَعَاقِلاً سُكَّانُهَا الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَامُ
مُسْتَرْسِلِينَ إِلَى الْحُتُوفِ، كَأَنَّمَا بَيْنَ الْحُتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ
آسَادُ مَوْتٍ مُخْدِرَاتٌ مَا لَهَا إِلَّا الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا آجَامُ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٤٩٠)

فالجيش كالسيل يملأ الفضاء والخيل فهى ضامرة دائمة الإسراج والإلجام، والفرسان هم الشجعان كأخوالهم وأعمامهم، وطول السفر غَيّر لون بشرتهم وسوَّدها وتحصّنوا بالسيوف والرماح والدروع التى تعصمهم أمام سيوف الأعداء مستأنسين إلى الموت فرحين بلقائه، كأنما بينه وبينهم قرابة.

نشاهد فى هذه الأبيات قدرته على تصوير حركة الجيش، وتصوير أصواته، وضوضائه.

ثم يصف الأسرى من كبار القادة قائلاً:

حَتَّى نَقَضْتَ الرُّومَ مِنْكَ بِوَقْعَةٍ شَنْعَاءَ لَيْسَ لِنَقْضِهَا إِبْرَامُ
فِي مَعْرَكٍ أَمَّا الْحِمَامُ فَمُفْطِرٌ فِي هَبْوَتَيْهِ وَالْكُمَاةُ صِيَامُ
وَالضَّرْبُ يُقْعِدُ قَرْمَ كُلِّ كَتِيبَةٍ شَرِسَ الضَّرِيبَةِ[٧] وَالْحُتُوفُ قِيَامُ

١. المُثْعَنْجِرُ: السيل الكثير. (مصطفى وآخرون، ٢٧٩١م: ٦٩)
٢. لَجِبَ القوم: صاحوا وأجلبوا، ـ ويقال لَجِبَ الموجُ: اضطرب فهو لَجِبٌ. (المصدر نفسه: ٥١٨)
٣. السُلّاف من العسكر: مقدّمتهم. (المصدر نفسه: ٤٤٤)
٤. لَحِق الفرس: ضَمُر. الأيطل من مادّة الإطل: الخاصرة. (المصدر نفسه: ٨١٨، ٠٢)
٥. شَزَبَ الحيوان: ضمر فهو شازب (ج) شُزَّب. (المصدر نفسه: ٤٨١)
٦. سَفَعَ السَّموم والنار والشمس وجهه: لفحته لفحا يسيرا فغيّرت لون بشرته. (المصدر نفسه: ٤٣٤)
٧. الضّريبة: الطبيعة والسجية. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٥٣٧)

فَفَصَمْتَ عُرْوَةَ جَمْعِهِمْ فِيهِ وَقَدْ جَعَلَتْ تَفَصَّمُ[١] عَنْ عُرَاهَا الْهَامُ
مَا كَانَ لِلْإِشْرَاكِ فَوْزَةُ مَشْهَدٍ وَاللهُ فِيهِ وَأَنْتَ وَالْإِسْلَامُ
لَمَّا رَأَيْتَهُمُ تُسَاقُ مُلُوكُهُمْ حِزَقاً[٢] إِلَيْكَ كَأَنَّهُمْ أَنْعَامُ
جَرْحَى إِلَى جَرْحَى كَأَنَّ جُلُودَهُمْ يُطْلَى بِهَا الشَّيَّانُ[٣] وَالْعُلَّامُ[٤]
مُتَسَاقِطِي وَرَقِ الثِّيَابِ كَأَنَّهُمْ دَانُوا فَأُحْدِثَ فِيهِمُ الْإِحْرَامُ
فَرَدَدْتَ حَدَّ الْمَوْتِ وَهْوَ مُرَكَّبٌ فِي حَدِّهِ فَارْتَدَّ وَهْوَ زُؤَامُ[٥]

(المصدر نفسه: ٤٩١)

فالشاعر أومأ إلى المعانى الدينية فى الصيام والإفطار، واستخدم الطباق فى النقض والإبرام، والإفطار والصيام، والقعود والقيام، ثمّ وصف المعركة الدّامية وعبّر عن احتدامها، واعتمد على الاستعارة المكنية فيتخيل الموت شخصاً مفطراً يلتهم الأرواح، بينما فرسان المأمون مشغولون بالقتال، صائمون عن الأكل والشرب، وينقضون على أبطال كتائب الأعداء بسيوفهم حيث الموت واقفٌ يلتقطهم، فتمزّق شملهم وتقطّع هاماتهم، فيسوقون ملوكهم وقوادهم إلى المأمون أسرى أذلّاء جرحى كالأنعام، وقد رأى أبوتمام أنّ الصراع بين العرب والروم صراع دينى؛ صراع المسلمين مع المشركين فالروم أى الكفّار أذلّاء قد تمزقت ثيابهم وليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم، وقد غطّت الدماء أجسامهم.

ويلاحظ أنّ الشاعر له قدرة متميّزة على تصوير الحركة، فالموت الذى هو مظهر السكون والجمود وفقدان الحيوية يجد فى شعره حيوية.

إنّ الشاعر من أجل موسيقى الألفاظ يحرص على تردّد الحروف وحشدها، فنجده يكرّر بعض الحروف داخل البيت الواحد مثلاً يأتى بالكلمات ذوات الدال والراء كما فى البيت الأخير، وتصحب هذين الحرفين الشدة والسرعة اللتين تلازمان الحرب.

وفى قصيدة أخرى من قصائده الحربية، يمدح خالد بن يزيد الشيبانى ويسجّل

١. فصَم الشيءَ : شقّه، انفصمت العروة: انقطعت. تفصّم: انكسر دون بينونة. (المصدر نفسه: ٦٩٢)
٢. الحِزْقة: جماعة من الناس والطّير والنّحل وغيرها. (الرازى، ٢٠٠٦م: ١٤٠)
٣. الشيّان: من مادّة شيا (شيو)، دم الأخوين. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٢٦٤/٧)
٤. العُلّام: الحنّاء. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م :٦٢٤)
٥. موت زُؤام: عاجل، وقيل سريع مُجْهِزٌ. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٦/٦)

انتصاره على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده، يقول:

وَلَمَّا رَأَى تُوفِيلُ رَايَاتِكَ الَّتِي ... إِذَا مَا اتلَأَبَّتْ[1] لا يُقَاوِمُهَا الصُّلْبُ
تَوَلَّى وَلَمْ يَأْلُ السَّرَدَى فِي اتِّبَاعِهِ ... كَأَنَّ الرَّدَى فِي قَصْدِهِ هَائِمٌ صَبُّ
كَأَنَّ بِلَادَ الرُّومِ عُمَّتْ بِصَيْحَةٍ ... فَضَمَّتْ حَشَاهَا أَوْ رَغَا[2] وَسْطَهَا السَّقْبُ
بِصَاغِرَةِ القُصْوَى وَطِمَّيْنَ وَاقْتَرَى ... بِلَادَ قَرَنْطَاوُوسَ وَابِلُكَ السَّكْبُ
غَدَا خَائِفًا يَسْتَنْجِدُ الْكُتْبَ مُذْعِناً ... عَلَيْكَ فَلاَ رُسْلٌ تَنَتْكَ وَلَا كُتْبُ
وَمَا الْأَسَدُ الضِّرْغَامُ يَوْماً بِعَاكِسٍ ... صَرِيمَتَهُ إِنْ أَنَّ أَوْ بَصْبَصَ[3] الْكَلْبُ
وَمَرَّ وَنَارُ الْكَرْبِ تَلْفَحُ قَلْبَهُ ... وَمَا الرَّوْحُ إِلَّا أَنْ يُخَامِرَهُ الْكَرْبُ
مَضَى مُدْبِراً شَطْرَ الدَّبُورِ، وَنَفْسُهُ ... عَلَى نَفْسِهِ مِنْ سُوءِ ظَنٍّ بِهَا إِلْبُ[4]
جَفَا الشَّرْقَ حَتَّى ظَنَّ مَنْ كَانَ جَاهِلا ... بِدِينِ النَّصَارَى أَنَّ قِبْلَتَهُ الغَرْبُ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٧٩–٨٠)

فتيوفيل فرّ مهزوماً والردى كعاشق يعشقه فهو أنّى يهرب يلاحقه الرّدى، كأنما عمت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب وكأنها الصيحة التى أنذرت من قبلهم ثمود حين رغا ولد الناقة التى عقروها عصيانا لله، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا هشيما أطارته الرياح وفرّقته وهذا أشبه بقوله تعالى ﴿وَأَخَذَ الّذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فی دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود: ٦٧)، ثمّ الشاعر يسمى الأماكن الرومية ويواصل أنّ تيوفيل يرسل إلى خالد بن يزيد قائد المسلمين الكتب والرسائل ليطلب منه العفو، ولكن دون جدوى، ثم يشبّه القائد بالأسد الضرغام الذى لايثنيه شيءٌ عن عزيمته ويشبّه تيوفيل بالكلب الذى يحرّك ذنبه مداراةً لهذا الأسد تقرّباً له، ولكن سعيه دون جدوى، ونار الحزن والغمّ تحرق قلبه

١. اتلأبّ: تتابعت هزّتها. (التبريزى، ١٩٩٢م: ١٠٧/١)
٢. رَغا البعير: صوّت وضجّ. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٣٥٨)
٣. بَصْبَص الكلبُ: حرّك ذنبه طمعاً أو مَلَقاً. (المصدر نفسه: ٥٩)
٤. أَلَبَ القوم أَلْبًا: تجمَّعوا وعليه الناسَ: حَرَّضهم؛ والإلْب: التدبير على العدوّ من حيث لا يَعلم. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٣؛ ابن منظور، ١٩٨٨م: ١٧٨/١)

والمسلمون فرحون بما يخامر من الحزن والغمّ هذا العدو الذى فقد ثقته حتى بنفسه.

هذه الأبيات لاتخلو من التهكّم أيضًا حيث نشاهد فى البيت الأخير السخرية من "تيوفيل" لأنّه أعرض عن الشرق وفرّ إلى الغرب حتى يظّن الجاهل بالنّصرانية أنّ قبلة الصّلاة عندهم هى الغرب لا الشرق.

ويبرز الجانب الدينى فى هذا البيت:

رَدَدْتَ أَدِيمَ الدِّينِ أَمْلَسَ بَعْدَمَا غَدَا وَلَيَالِيهِ وَأَيَّامُهُ جُرْبُ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٨٠)

يخاطب الممدوح ويقول: «نفيت كلّ ما لابس [الدين] من الشّرك أى كأنّه كان أجرب فرددته أملس صافيًا.» (التبريزى، ١٩٩٢م: ١٠٩/١)

انتصار المسلمين على الروم بقيادة المعتصم

يسجّل الشاعر فى قصيدة أخرى من قصائده المدحيه انتصارَ المعتصم على البيزنطيين، ويستهلّها باستهلال غيرمألوف، إنّه لم يقف بالأطلال، والدمن، والنسيب وإنّما يستهلها بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتاب لأنّ المنجّمين كانوا يعتقدون بأنّ النصر يحصل بعد نضج التين والعنب، ولكن المعتصم فعل ما شاء وعند ما تحقّق النصر وثبت كذب المنجّمين أشاد أبوتمام بهذا الفتح ووصفه بـ "فتح الفتوح" قائلًا إنّه فتحٌ لايُضاهَى ولايوصف بشعر أو بنثر، فيقول فى مطلعها:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فى مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٢)

ثم يخاطب الشاعر يوم النصر الذى حدثت فيه وقعة عمورية لجلاله وعظمته، ويعمد إلى الاستعارة فيشبه الْمُنَى المعسولة التى تحققت بالفتح، بالنياق الحافلة ضروعها باللبن ويتغنّى بما تحقّق للإسلام من عزّ ومجد بينما انهارت دعائم الروم، فيقول:

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ مِنْكَ الْمُنَى حُفَّلًا مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ

أَبْـقَيْتَ جَدَّ بَنِى الْإِسْلامِ فى صَـعَـدٍ وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ فِى صَـبَـبِ

(المصدر نفسه: ٢٤)

ويصوّر امتناع المدينة عن فاتحيها قبل المعتصم، فيشبهها بامرأة شابة استعصت على ملـوك الفرس وتبابعة اليمن وظلّت بكراً لم تفترعها الحادثات منذ عهد الإسـكندر أو قبله وهى لم تزل شـابة حتى صارت كأنها زبدة السـنين، ولكنّها لم تبخل بشبابها على المعتصم فافترعها، وكان الفتح خطبا مُدلهمّا على الروم وكان غزو "أنقرة" نصراً للمعتصم وشؤماً على عمورية.

ثم يخاطـب أبوتمام القائد الظافـر الذى غادر أرض المعركة وقـد أضرم النيران فى المدينة فى ذلك اليوم، فيشـير إلى رواية تاريخية وهى أنّ «امرأة عربية من أهل زبطرة لقيت من الغزاة شـدة وتعذيبا، فصاحت وهى تُساق إلى الأسـر: "وامعتصماه" وبلغت اسـتغاثتها المعتصم، فتململ وصرخ "لبّيک لبّيک" ثم جمع العسـكر [...] ومضى بجيشه العظيم إلى عمورية.» (الحاوى، ١٩٨٦م: ١٠٢/٣)

ثم يصـوّر أبوتمام وقع الهزيمة على "تيوفيل" قائد البيزنطيين الذى لمّا شـاهد الجيش زاحفـا عليه كالسـيل حاول أن يغرى المعتصم بالأموال وهو لايعلم أنّ المعتصم نفسـه أنفق الذهب الكثير الذى هو أكثر من الحصى، فعندما باءت محاولات "تيوفيل" بالفشل لم يجد أمامه إلّا الفرار بفلوله وقد ألجمت الرماح منطقه فكّف عن الكلام بينما استعرت أحشاؤه من الفزع فأخذ يعدو عدواً سريعاً كالظّليم.

لَمَّا رَأَى الحَرْبَ رَأْىَ الْعَيْنِ تُوفِلسٌ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرَبِ[1]

غَـدَا يُصَـرِّفُ بِالْأَمْـوَالِ جِرْيَتَهَا فَعَـزَّهُ الْبَحْـرُ ذُو التَّيَـارِ وَالْحَدَبِ

وَلَّـى وقَـدْ أَلْجَـمَ الْخَطِّـىُّ مَنْطِقَهُ بِسَـكْتَةٍ تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ فى صَخَبِ

إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّها عَدْوَ الظَّلِيمِ، فَقَدْ أَوْسَـعْتَ جاحِمَهَا[2] مِنْ كَثْرَةِ الْحَطَبِ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٣١)

ويختم الشـاعر قصيدته بالدعاء للمعتصم بأن يكافئ الله سعيه عمّا أسداه للدين من

١. الحَرَب: الويل والهلاک. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ١٦٤)

٢. الجاحم: الجمر الشديد الاشتعال، والمكان الشديد الحرّ. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ١٠٨)

جلائل الأعمال:

خَـلِيفَـةَ اللهِ جَـازَى اللهُ سَـعْـيَکَ عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلامِ وَالْحَسَبِ

(المصدر نفسه: ٣٢)

يقول العنبكى: «صحب أبوتمام المعتصم فى هذه المعركة فشـهد بنفسه وقائعها وسجّل مشاهدها ورسم أحداثها فكانت القصيدة بحق وثيقة تاريخية وشعرية مهمة.» (العنبكى، ٢٠٠٥م: ١٥٢)

فهذه القصيدة كما وصفها الدكتور شوقى ضيف: «أمّ ملاحمه» (ضيف، ١٤٢٧ق: ٢٨٣/٣)، وكما وصفها الدكتور الشكعة «من عيون الشعر العربى.» (الشكعة، ١٩٨٦م: ٦٧٠)

وفى القصيـدة انسـجام وترابط فكرى فالشـاعر يسـتهلها «بالمقارنة بين السـلاح والتنجيم، ويجعل السـلاح طريق الانتصـار، ثم يجعل فتح عمّوريّـة برهانا على صحة نظريته فيصف ذلک الفتح، ثم ينتقل إلى الخليفة الذى قام بذلک الفتح ويطرئ شجاعته وبطولته.» (الفاخورى، ١٩٨٦: ٧٣٣/١)

انتصار المسلمين على الروم بقيادة أبى سعيد الثغرى

يصف الشـاعر هزيمة الروم فى معركـة من المعارک التى خاضها أبوسـعيد الثغرى، ويبدأها بوصف الديار والتشبيب ثم يخلص بعد ذلک إلى مدح الممدوح ويبرز فى أبيات من القصيدة الجانب الدينى.

ثم يصوّر انتصار أبى سعيد الثغرى فى بعض معاركه مع الروم فى وقت الشتاء:

لَـقَد انْـصَعْتَ[١] وَالشِّتَاءُ لَـهُ وَجْـ ـــهٌ يَـرَاهُ الْكُمَاةُ جَهْمًـا قَطُوبَا

طَاعِنًـا مَنْحَـرَ الشَّـمَالِ مُتِيحًا لِبِـ ـدِ الْعَـدُوِّ مَوْتًـا جَنُوبَـا

فِى لَـيَالٍ تَكَـادُ تُبْقِى بِخَدِّ الشَّـمـ ـسِ مِـنْ رِيحِهَـا الْبَلِيلِ شُـحُوبَا

سَـبرَاتٍ[٢] إِذَا الْحُرُوبُ أُبِيخَتْ[٣] هَـاجَ صِنَّبْرُ[٤] هَـا فَكَانَتْ حُرُوبَا

١. انصاع: رجع أو مرّ مُسرعا. (المصدر نفسه: ٥٢٨)

٢. السَّبْرَة: الغداة الباردة. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٥٢٨)

٣. أباخ النّار: أخْمدها. (المصدر نفسه: ٧٦)

٤. صِنَّبْر: الريح الباردة فى غيم. (المصدر نفسه: ٥٢٤)

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ فِي اخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا[١] رَكُوبَا
لَوْ أَصَخْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمِعْنَا لِقُلُوبِ الْأَيَّامِ مِنْكَ وَجِيبَا[٢]
كُلُّ حِصْنٍ مِنْ ذِي الكَلَاعِ وَأَكْشَو ثَاءَ أَطْلَقْتَ فِيهِ يَوْمًا عَصِيبَا[٣]
وَصَلِيلاً مِنَ السُّيُوفِ مُرِنَّا وَشِهَابًا مِنَ الحَرِيقِ ذَنُوبَا

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٧٠)

هذه الأبيات تصوّر أعداء أبى سعيد فى الشمال وقد أحاطت بهم الثلوج، وقدم أبو سعيد بجيشه من الجنوب إليهم مقتحمًا حصونهم فى الشمال راميا إيّاهم بسهام الموت الزّؤام، ثم يستخدم الاستعاره المكنية فى قوله "خدّ الشمس" فالرياح الممطرة تلطمه فتغير لونه، وإذا سكنت الحرب فى هذه الأوقات الثلجية هاجت العواصف الثّلجية فأجّجت حربا أخرى، ثم شبّه الشتاء، بناقة شريسة[٤] ضَرَبَ أبوسعيد عرقى عنقها ضربةً جعلتها ناقة مسنة ذلولًا، ويخاطبه قائلًا: إنّك أطلقت فى الحصون يومًا شديد الهول سيوفًا مشهورة فى أيدى المقاتلين ونارًا تحرقهم.

إنّ الشاعر جاء بـ"عَصيب" مع "أطلقْت" لأنّ الإطلاق عنده ضد العصب.

ثم يواصل الشاعر قائلًا إنّ الأعداء أرادوا أن يوقعوا بجيشك ليلاً ولكنك يا شيخ السياسة وصاحب التجربة أفسدت خططهم:

وَأَرَادُوكَ بِالْبَيَاتِ وَمَنْ هَـ ـذَا يُرَادِي[٥] مُتَالِعًا[٦] وَعَسِيبَا[٧]؟
فَرَأَوْ قَشْعَمَ السِّيَاسَةِ قَدْ ثَقَّـ ـفَ مِنْ جُنْدِهِ الْقَنَا وَالْقُلُوبَا
حَيَّةُ اللَّيْلِ يُشْمِسُ الْحَزْمُ مِنْهُ إِنْ أَرَادَتْ شَمْسُ النَّهَارِ الْغُرُوبَا

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٧٠)

والشاعر أجاد فى استخدام الجناس بين "أرادوا" و"يرادى".

١. العَوْد: المُسنّ من الإبل. (المصدر نفسه: ٦٣٥)
٢. وَجَبَ القلبُ: خَفَق واضطرب ورجف. (المصدر نفسه: ١٠١٢)
٣. عصب الشيء: شدّه، ويوم عصيب: يوم شديد الحرّ والهول. (المصدر نفسه: ٦٠٣ و٦٠٤)
٤. ناقة شريسة: ذات شراس، بيّنة الشراس، سيئة الخلق. (المصدر نفسه: ٤٧٨)
٥. رادى عنه: دافع وناضل. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٣٤٠)
٦. مُتالعٌ: جبلٌ. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٤٤/٢)
٧. عسيبٌ: اسم جبل. (المصدر نفسه: ١٩٨/٩)

وإضافة إلى هجوم أبى سعيد على الأعداء فى شدة البرد، أنّه يضبط أمره ويثقّف الرماح بالصّقل وقلوب الجنود بالصبر ثمّ يزحف فى الظُّلَم لذلک يشبّهه الشاعر بحيّة الليل لأنّ «كثيرًا من الحّيات يرتقب الليل فيخرج فيه لابتلاع فراخ الطائر الذى تقرب منه.» (التبريزى، ١٩٩٢م: ٩٨/١)

فالقائد يستعدّ للحرب فلا ينام فهو بحزمه وتدبيره يجعل الليل مشمساً إشماس النهار، وربّما تعمّد أبوسعيد أن يهجم على الرّوم فى هذا الوقت الصعب، لأنّ الروم لايتوقعون فيه هجمة من الجنوب، ولكن أبا سعيد لم يكتف بهذه الهجمة الناجحة، بل أمر أحد قواده وهو محمّد بن معاذ الأزدى أن يهجم عليهم بعده، فقال أبوتمام:

ثَمَّ وَجَّهْتَ فَارِسَ الْأَزَدِ وَالْأَوْ حَدَ فِي النُّصْحِ مَشْهَدًا وَمَغِيبَا
فَتَصَلَّى مُحَمَّدُ بْنُ مَعَاذٍ جَمْرَةَ الحَرْبِ وَامْتَرَى الشُّؤْبُوبَا
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٧٠)

يلوم الشاعر ممدوحه أباسعيد على هذه الهجمة الثانية الفاشلة ويقول له: إنک لم تشاور أحداً فيها، واعتمدت على رأيک ولو استشرت الآخرين لمنعوک من خوضها فكانت غزوة لم تلحقها غزوة أخرى، فيواصل قائلًا:

غَزْوَةٌ مُتْبِعٌ وَلَوْكَانَ رَأْيٌ لَمْ تَفَرَّدْ بِهِ لَكَانتْ سَلُوبَا
(المصدر نفسه: ٧٠)

وفى قصيدة أخرى من قصائده الحربية يصوّر لنا انسحاب الروم أمام الجيش العربى بقيادة أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى ويبدأ القصيدة بالغزل ويتغنّى بشجاعة هذا القائد العربى واصفا غزوه للروم:

لَوْ لا جِلادُ أبى سَعيدٍ لَمْ يَزَلْ لِلثَّغْرِ صَدْرٌ ما عَلَيْه صِدارُ
قُدْتَ الجِيادَ كَأنَّهُنَّ أَجَادلٌ[1] بِقُرى دَرَوْلِيَةٍ[2] لها أوْكارُ
حَتّى الْتَوى مِنْ نَقْعِ قَسْطَلِها[3] عَلى حِيطانِ قُسْطَنْطِينَةَ الإعْصارُ

١. الأجدل: الصّقر، صفة غالبة وأصله من الجَدْل الّذى هو الشّدة وهى الأجادل. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ١١١)
٢. دَرْوَلِيّةُ: مدينة فى أرض الروم. (الحموى، ١٩٥٧م: ٤٥٣/٢)
٣. القَسْطَلُ: الغبار فى الموقعة. (المصدر نفسه: ٧٣٤)

أوْقَدْتَ مِــنْ دُونِ الخَلِيجِ لِأهْلِها نَــاراً لَها خَلْــفَ الخَلِيجِ شَــرارُ
إلاّ تَكُنْ حُصِرَتْ فَقَدْ أضْحَى لَها مِنْ خَوْفِ قَارِعَةِ الحِصَارِ حِصارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٤)

فلولا مضاربته بالسـيف محاماةً عن الثغر، لكان الثغر خاليًا وكان بإمكان العدّو أن يتوغّل فيه ثّم يخاطبه: إنّک قدت الخيول التی تُشبه الأجادل التی أوکارها بقُری دَرولية ومضيت بجنودک وخيلک کالأعاصير المدمّرة حتی حاصرت أسوار "قسطنطينية".

ثمّ يصف النار التی أضرمها أبوسعيد حول قراها فحمل الهواء شررها إلی خليج "البسفور"، فبات أهلها فی خوف وذعر حين رأوا هذا الشرر الذی يستضیء به العسکر خلف الخليج، فعلموا أنهم محاصرون وإن لم يحاصروا فخوفهم من الحصار کان حصارًا عليهم.

وقد جاء الشاعر بکلمتی قسطنطينية وقسطل وهذا «تجنيس الصدر لأنّ أول الکلمتين متشابه.» (التبريزی، ١٩٩٢م: ٣١٩/١)

ويصف أبوتمام حال الروم حين غزاهم أبوسعيد بأنّهم أدرکوا عجزهم أمامه، فدفعهم الجبن إلی الفرار فلم ينفعهم ذلک لأنّ أبا سـعيد منعهم من الفرار بالقتل والأسر، وأقام الحرب فی کل مکان، ثمّ يصوّر الشـاعر کيف سـار إليهم من دروب الروم جيش عظيم ذولجب تضجّ منه الأرض فيسمع لها صوت وکأنّه خوار البقر:

خَشَعوا لِصَوْلَتِکَ الّتی هی عِنْدَهُمْ کَالمَـوْتِ يَـأْتی لَيْـسَ فِيـهِ عَارُ
لَمّا فَصَلْـتَ مِنَ الـدُّروبِ إلَيْهِم بِعَرَمْـرَمٍ لِـلأَرْضِ مِنْهُ خُـوَارُ[1]
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٧٤)

إنّ أباسـعيد کان من حماة الثغور أکثر من سبع عشرة سنة فکان يعرف الطرق جيداً، فإن غزا مبکراً أرشـدته الأماکـن المرتفعة التی عليها الأعلام وإن سـری ليلا اهتدی بالنجـوم، فلمّا بلـغ حصن "الحمّة البيضـاء" کأنّه کان علی موعـد معه وهناک حصن "القُفل" الذی لا بدّ له من اجتيازه، و"الخليج" شعار الروم فی الحرب لأنهم ينسبون إليه فيقول الشاعر:

١. الخُوار: من صوت البقر والظّباء والسهام. (مصطفی وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٦١)

إنْ يَبْتَكِرْ تُرْشِدْهُ أَعْلامُ الصُّوَى[١] أَوْ يَسْرِ لَيْلاً فَالنُّجُومُ مَنارُ
فَالْحَمَّةُ الْبَيْضاءُ مِيعادٌ لَهُمْ وَالْقُفْلُ حَتْمٌ وَالْخَليجُ شِعارُ
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٧٥)

فأبوتمام يصور الحالة النفسية للروم وما أصابهم من خوف وفزع فقد أدركوا أنّ غزو أبي سعيد لهم يساوى هلاكهم، وقد ظهرت ملامح الرعب عليهم فصار مشيهم خفيًّا ونداؤهم إيماءً وحديثهم سرًّا، لأنهم كانوا يخافون من سطوته وبأسه:

عَلِمُوا بِأَنَّ الغَزْوَ كانَ كَمِثْلِهِ غَزْوًا وَأَنَّ الغَزْوَ مِنْكَ بَوارُ
فَالمَشْيُ هَمْسٌ والنّداءُ إشارَةٌ خَوْفَ انْتِقامِكَ وَالحَديثُ سِرارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٥)

ثم يرسم هروب "منويل" قائد الروم، فيسخر من ما حلّ به من الجبن حتّى يتمنّى أن كل مدينة لو تصير جبلاً منيعا يحتمى به وكل حصن يصبح غاراً يختبىء فيه، حان الآن وقت الانتقام، فـ"منويل" يسمع جبلة القتال وصراخه ويرى بأم عينيه عجاج الموت، وعندما يرى فلول جيشه المنهزم وقد جاؤوا يشكون إليه ماحلّ بهم من هزمة لم يستطع أن يمدّهم بشيء إلّا بدموعه الغزيرة ويضرب هذه الأمثال الثلاثة "الصبر أجمل"، و"القضاء مسلطٌ"، و"الشرّ فيه خيار"، ويخاطب "منويل":

لَمّا أَتَتْكَ فُلُولُهُمْ أَمْدَدْتَهُمْ بِسَوابِقِ العَبَراتِ وَهْيَ غِزارُ
وَضَرَبْتَ أَمْثالَ الذَّليلِ وَقَدْ تَرى أَنْ غَيْرُ ذاكَ النَّقْضُ وَالإمْرارُ
الصَّبْرُ أَجْمَلُ وَالْقَضاءُ مُسَلَّطٌ فَارْضَوْا بِهِ وَالشَّرُّ فِيهِ خِيارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٦)

ويمضى فى خطابه لقائد الروم قائلاً: هيهات لک الفرار فقد نازعک الأعنّة شجاع، فقد جذبتها لتهرب وجذبها فغلبک. وأبوسعيد مضى فى طلبک ولو اعترضت له دونک النار لاقتحمها بنفسه:

هَيْهاتَ جاذَبَكَ الأعِنَّةَ باسِلٌ يُعْطِي الأَسِنَّةَ كُلَّ ما تَخْتارُ

١. الصُّوة: ما نُصب من الحجارة ليستدلّ به على الطريق (ج) صُوًى. (المصدر نفسه: ٥٣٠)

فَمَضَى لَوْ أنَّ النّارَ دُونَکَ خَاضَها بِالسَّـيْفِ إلاّ أنْ تَکـونَ النّـارُ
حَتّى يَؤُوبَ الحَقُّ وَهْوَ المُشْتَفی مِنْکُـمْ وَمَـا لِلدّينِ فِيکُـمْ ثارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٦)

فالشـاعر فی هذه الأبيات يرسم لنا صورة البطل الشجاع الذی يحمی الثغور ويبثّ الرعـب فی قلوب الأعداء، فهم يرفعون أصواتهم من الرعب، لأنّهم علموا بأنّه لايقضی ما عليه من حقّ الإسلام إلا عندما يهلک هؤلاء الكفّار، وهو لايزال حَذِرًا يَقِظًا يخاف المشـركون من شـرّه وبأسـه ويخضعون أمامه و«إنه أبداً يكون فی الجهاد إما بالمسافرة إلی ديار الكفّار مجاهداً وغازياً، وإمّا بإعمال الفكر فيما يضّرهم [ويكسـر شـوكتهم] ويذلّهم.» (التبريزی، ١٩٩٢م: ٣٢٢/١)

يَقِظٌ يَخافُ الْمُشْـرِكُونَ شَذاتَهُ مُتَواضِـعٌ يَعْنُـو[1] لَـهُ الْجَبّارُ
ذُلُلٌ رَكائِبُهُ إذا ما اسْتَأْخَرَتْ أَسْـفارُهُ فَهُمُومُـهُ أَسْـفَارُ
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٧٨)

ثم يواصل الشـاعر المدح ويـبرز المعانی الدينية فی بعض الأبيـات «لأنّه لا يراها حربًا بين ملک الروم ونظيره العربی، بل يراها حربًا بين التوحيد والشـرک.» (عيسـی، ٢٠١٠م: ١١٣)

وفی قصيدة أخری يخلّد أبوتمام انتصار أبی سعيد علی الروم فی موقعة "وادی عقرقس" وانتصاره علی الخرميّة فيخاطبه قائلًا:

جَدَعْتَ لَهُمْ أَنْفَ الضَّلالِ بِوَقْعَةٍ تَخَرَّمَ فی غَمـّائِهـا مَنْ تَخَرّما
تَلِمْتَهُـمُ بِالمَشْـرَفِيِّ وَقَلَّمـا تَثَلَّـمَ عِـزُّ الْقَـوْمِ إلّا تَهَدَّما
قَطَعْتَ بَنانَ الْكُفْرِ مِنْهُمْ بِمَيْمَنٍ وَأَتْبَعْتَهـا بالرّومِ كَفًّا وَمِعْصَما
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٥٤٤)

فيبـدأ القصيدة بالغزل ثمّ يخلص إلـی مدح الممدوح ويتغنّـی بانتصاره علی بابک وأصحابـه وانتصاره علی الروم فی موقعة "وادی عقرقس" ويصف لنا تفاصيل ما جری فی هذه الموقعة، ويشـيد بجهود قائدين من قوّاد أبی سـعيد هما "بشر" و"محمد بن معاذ"،

١. عنا: خضع وذلّ. (مصطفی وآخرون، ١٩٧٢م: ٦٣٣)

ويشـير إلى أنّهما واجها مقاومة شرسـة من الروم حتّى كاد أن ينهزما ولكن أبا سعيد أنقذهما فحصل النصر على يديه؛ فيقول:

رَأَى الرُّومُ صُبْحًا أَنَّها هِيَ إِذْ رَأَوْا غَـدَاةَ الْتَقَى الزَّحْفَـان أَنَّهُمَا هُمَا
هِزَبْـرَا غَرِيفٍ شَـدَّ مِـنْ أَبْهَرَيْهِمَا وَمَتْنَيْهِمَـا قُـرْبَ الْمُزَعْفَـرِ مِنْهُمَا
فَأُعْطِيـتَ يَوْمًـا لَـوْ تَمَنَّيْـتَ مِثْلَهُ لَأَعْجَـزَ رَيْعَـانَ الْمُنَـى وَالتَّوَهُّمَا
لَحِقْتَهُمَـا فِي سَـاعَةٍ لَـوْ تَأَخَّرَتْ لَقَـدْ زَجَرَ الْإِسْـلَامُ طَائِرَ أَشْـأَمَا
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٥٤٦)

فالشـاعر يصف هزيمة الروم في "وادى عقرقس" ويحدّد زمان المعركة بيوم (السبت) ويقول: كانت هذه الموقعة في يوم السبت فلولا أنّ المسلمين والعرب يعظّمون يوم الجمعة ويجعلونه كالعيد، لاتّخذوا السبت عيداً إلى يوم الدين:

فَـإِنْ يَـكُ نَصْرَانِيّاً النَّهْـرُ آلسٌ فَقَدْ وَجَدُوا وَادِى عَقَرْقُسَ مُسْلِمَا
بِـهِ سُبِتُوا فِي السَّبْتِ بِالْبِيضِ وَالْقَنَا سُـبَاتاً ثَوَوْا مِنْهُ إِلَى الْحَشْـرِ نُوَّمَا
فَلَـوْ لَمْ يُقَصِّـرْ بِالْعُرُوبَـةِ لَمْ يَزَلْ لَنَـا عُمُـرَ الْأَيَّـامِ عِيـداً وَمَوْسِمَا
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٥٤٧)

ثمّ يصـف ما حلّ بالرّوم في هذا اليوم حيـث صارت جثثهم طعامًا للطّيور الجارحة والوحوش، وكان ذلك اليوم عرساً للإسلام ومأتماً للشرك والكفر فيقول:

وَلَمْ يَبْقَ فِي أَرْضِ الْبَقَّارِ طَائِرٌ وَلا سَـبْعٌ إِلَّا وَقَدْ بَاتَ مُولِمَا[١]
وَلَا رَفَعُوا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَثْلَبًا[٢] وَلَا حَجَـراً إِلَّا رَأَوْا تَحْتَهُ دَمَا
(المصدر نفسه: ٥٤٨)

إنّ الشاعر يصوّر لنا هزيمة الرّوم أمام المسلمين في قصيدة أخرى من قصائده المدحية، فالممدوح هو أبو سـعيد الثغرى، والشـاعر يبدأ القصيدة هذه بمقدمة غزلية ثمّ ينتقل إلى مدح أبي سعيد الثغرى من خلال وصف معركة مع الرّوم فيقول:

رُمِيَتْ مِنْ[٥] أَبِي سَـعِيدٍ صَفَاةُ الـ ـرُّومِ جَمْعاً بِالصَّيْلَمِ[٣] الْخَنْفَقِيقِ[٤]

١. أوْلم فلانٌ: عَمل وليمةً. [المُولم: الوليمة.] (المصدر نفسه: ١٠٥٧)
٢. الإثْلبُ والأَثْلَبُ: التراب والحجارة. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٩٩)
٣. الصَّيْلَمُ: الداهية تستأصل ما تصيب. (المصدر نفسه: ٥٢١)
٤. الخَنْفَقيقُ: الداهية. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٩١٤/٢)

بِالْأَسِيلِ الْغِطْرِيفِ وَالذَّهَبِ الْإِبْـ ـرِيزِ فِينَـا وَالْأَرْوَعِ الْغِرْنِيقِ[١]
فِي كُمَاةٍ يُكْسَوْنَ نَسْجَ السَّلُوقِيِّ وَتَغْـدُو بِهِـمْ كِلَابُ سَـلُوقِ[٢]
يَتَسَاقَوْنَ فِي الْوَغَى كَأْسَ مَوْتٍ وَهْيَ مَوْصُولَةٌ بِـكَأْسٍ رَحِيقِ
وَطِئَتْ هَامَةَ الضَّوَاحِي إِلَى أَنْ أَخَـذَتْ حَقَّهَا مِـنَ الْفَيْذوقِ[٣]
أَلْهَبَتْهَا السِّيَاطُ حَتَّى إِذَا اسْتَنَّـ ـتْ بِإِطْلَاقِهَا عَلَى النَّاطَلُوقِ[٤]

(المصدر نفسه: ٤٠٠)

فالشاعر يمدح أبا سعيد بأنّه ينزل على الرّوم الداهية الدهياء ويصوّر جنوده وعليهم الدروع السلوقية ويشبّه الخيول بكلاب سلوق، لأنّ الخيل تُشبه الكلب فى خلقه، ثمّ يختم القصيدة بالمديح والثّناء وطلب العطاء.

ويحدّد لنا فى أثناء القصيدة الطريق التى قطعها أبوسـعيد والضّواحى التى وصل إليها من مثل: "الفيدوق"، و"الناطلوق"، و"الإبسيق".

ثمّ يصور أنّ أباسـعيد يهجم على "دَرولية" وسوقها ويبدّل هذه السوق بسوق موت ويغادرها وقد توزّع جنود الأعداء بين هاربين من حريق السيف وواقعين فى النّار، بعد ذلک يصل إلى خليج "البوسـفور" ويقتحم بعض الحصون والمواقع الرّومية، وقد كسب من الغنائم ما لم يجده من قبل فى "ماشان" و"الرّزيق" ولو لا أن خيله أعيت لواصَل غزوه فلـم يكن صعباً عليه أن يواصل فتوحاته فى تلـک البلاد إلى أن يصل إلى أقصى بلاد الرّوم، نرى ذلک على شاكلة قوله:

ثُمَّ أَلْقَـى عَلَـى دَرَوْلِيَـةَ الْـبَرْ كَ مُحِلّـاً بِالْيُمْـنِ وَالتَّوْفِيـقِ
فَحَـوَى سُـوقَهَا وَغَـادَرَ فِيهَـا سُوقَ مَوْتٍ طَمَتْ[٥] عَلَى كُلِّ سُوقِ
فَهُـمْ هَارِبُـونَ بَيْنَ حَرِيقِ السَّـ ـيْـفِ صَلْتـاً وَبَيْنَ نَـارِ الْحَرِيقِ
وَاجِـداً بِالْخَلِيجِ مَـا لَمْ يَجِدْ قَطُّ بِـمَـاشَـانَ لَا وَلَا بِالزَّرِيـقِ

١. الغِرْنِيقُ والغِرْنَيْقُ: الأبيض الشابّ الناعم الجميل. (المصدر نفسه: ٩٨٢/٤)
٢. سلوقُ: قرية باليمن تنسب إليها الكلاب الجياد والدّروع الجيّدة. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٤٤٤)
٣. الفَيْذوقية (ذال معجمة): موضع فى الشعر ذكره أبوتمام. (الحموى، ١٩٥٧م: ٢١٠/٤)
٤. النّاطَلوق: موضع فى الشعر ذكره أبوتمام. (المصدر نفسه: ٢٥٢/٥)
٥. طَما الماء: ارتفع وملأ النهر [هنا بمعنى غلب.] (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٥٦٧)

وَلَـوْ أَنَّ الْجِيَـادَ لمْ تَعْصِـهِ كَا نَ لَدَيْهِ السَّـحِيقُ غَيْرَ السَّحِيقِ[١]

(المصدر نفسه: ٤٠١)

ثمّ يشير الشاعر إلى تلك الموقعة التى هزّت أصداؤها أنحاء "القسطنطنية" عاصمة الرّوم وجعلت "البطريق" ملك الرّوم يسـتغيث بأنصاره اسـتغاثة بلا فائدة وقد كثر أسرى الرّوم وقتلاهم وقد تجلّت عظمة القائد أبى سعيد وحسن إدارته للحرب إذ يعلو صوته ساعة الجدّ.

ثمّ يشيد بانتصاره فى معركة "وادى عقرقس" فى بلاد الروم، ويبرز الجانب الدّينى قائلاً:

جَأَرَ[٢] الدِّينُ وَاسْتَغَاثَ بِكَ الْإِسْـ ـلَامُ لِلنَّصْـرِ مُسْـتَغَاثَ الْغَرِيقِ

(المصدر نفسه: ٤٠٣)

ويشـير إلى مـا لحق بالرّوم من هزيمة سـاحقة وإلى اسـتخدام جيش أبى سـعيد "المنجنيق" فى الحرب فيقول:

وَأَصَاخُـوا كَأَنَّمَـا كَانَ يَرْمِيـ ـهِمْ بِذَاكَ التَّدْبِيرِ مِنْ مَنْجَنِيقِ

(المصدر نفسه: ٤٠٣)

ثمّ يصف غزوتيه فى الشتاء اللّتين اجتاح فيهما قريتين من قرى الرّوم وهما "صاغرى" و"أوقَضى"، ولكن أبا سـعيد خاف على جنوده مـن أن يلحقهم مكروه من البرد فرجع وآب، وقد أبغض المطر والبرد اللّذين منعاه من مواصلة غزواته:

أَوْرَثَتْ «صَاغِرَى» صَغَاراً وَرَغْماً وَقَضَتْ «أَوْقَضَى» قُبَيْلَ الشُّرُوقِ

لَا تُبَالِي بَوَارِقَ الْبِيضِ وَالسُّـمـ ـرِ وَلَكِـنْ بَالَيْـتَ لَمْـعَ الْـبُرُوقِ

(المصدر نفسه: ٤٠٤)

الشاعر يتغنّى بأيّام أبى سعيد الحسان وفتوحاته وغزواته، ويشيد بمآثره وأمجاده.

صورة الرّوم فى قصائد أبى فراس الحمدانى

إنّ الرّوميّات تشـغل حيّزاً وسيعاً من ديوان أبى فراس ولا نستطيع أن نرتّبها ترتيباً تاريخياً لأنّها لا تتضمّن تواريخ محدّدة ولا تشتمل على سياق تاريخىّ متتابع.

يشير الشاعر فى إحدى رسائله الرّومية إلى القيود فى رجليه:

١. سَحُق الشيء: بعُد أشدّ البُعد. (المصدر نفسه: ٤٢٠)

٢. جأر: رفع صوته. (المصدر نفسه: ١٠٣)

يَا مَنْ رَأَى لِى، بِحِصْنِ «خَرْشَنَةٍ» أُسْدَ شَرًى، فِى الْقُيُودِ أَرْجُلُهَا!
يَا مَنْ رَأَى لِىَ الدُّرُوبَ، شَامِخَةً دُونَ لِقَاءِ الْحَبِيبِ أَطْوَلُهَا
(أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٢٦٣)

الشاعر أيضًا فى رائيته الكبرى يهنّئ سيف الدولة بإيقاعه بالقبائل التى جمّعت على مخالفته ويبدأها بالغزل على عادة شعراء العرب القدامى ثمّ يفتخر بفروسيته ويمجد قومه ذاكراً أيام أسلافه وأعمامه.

إنّ الثغور كان لها بعد محسوس فى الشعر العربى، والثغر عند أبى فراس والدفاع عنه وصد الغزوات أصبح داءً لايواسيه إلّا سيف الدولة فيقول:

أَسَا دَاءَ ثَغْرٍ كَانَ أَعْيَا دَوَاؤُهُ وَفِى قَلْبِ مَلْكِ الرُّومِ دَاءٌ مُخَامِرُ
بَنَى ثَغْرَهَا الْبَاقِى عَلَى الدَّهْرِ ذِكْرُهُ نَتَائِجُ فِيهَا السَّابِقَاتُ الضَّوَامِرُ
(المصدر نفسه: ١٢٩)

وفى هذه القصيدة يصف غزوة أبى العلاء سعيد بن حمدان (أبيه) الذى أوغل فى بلاد الرّوم غازياً فيقول:

غَزَا الرُّومَ لَمْ يَقْصِدْ جَوَانِبَ غِرَّةٍ وَلَا سَبَقَتْهُ بِالْمُرَادِ النَّذَائِرُ
فَلَمْ تَرَ إِلَّا فَالِقًا هَامَ فَيْلَقٍ، وَبَحْرًا لَهُ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ مَاخِرُ
(المصدر نفسه: ١٣٧)

فساحة الوغى امتلأت بالدّماء حتّى أصبحت وكأنّها بحر تجرى عليه أجساد الأعداء كالسفن.
ثمّ يذكر سيف الدولة صاحب حلب وناصر الدولة صاحب الموصل ويبرز الجانب الدينى بقوله:

فَفِينَا لِدِينِ اللهِ عِزٌّ وَمَنْعَةٌ وَفِينَا لِدِينِ اللهِ «سَيْفٌ» وَ«نَاصِرُ»
(المصدر نفسه: ١٣٧)

ويشير إلى بناء سيف الدولة لرَعْبانَ والحَدَث من بلاد الروم:

بَنَاهُنَّ بَانِى الثَّغْرِ، وَالثَّغْرُ دَارِسٌ، وَعَامِرُ دِينِ اللهِ، وَالدِّينُ دَاثِرُ
(المصدر نفسه: ١٣٩)

فالممدوح لا يعمر الثغور التى تقادم عهدها فحسب بل يحيى الدين.
ثمّ يواصل قائلاً:

وَشَقَّ إِلَى ثَغْرِ «الدُّمُسْتُقِ[١]" جَيْشُهُ، بِأَرْضِ «سُـلَامٍ[٢]" وَالْقَنَا مُتَشَاجِرُ
سَقَى "أَرْسَنَاسًا" مِثْلَهُ مِنْ دِمَائِهِمْ، عَشِـيَّةَ غَصَّتْ بِالْقُلُوبِ الْحَنَاجِرُ
وَأَوْرَدَهَـا أَعْلَى "قَلُونِيَّـةَ" أَمْرُؤٌ بَعِيدُ مُغَارِ الجَيْشِ، أَلْوَى[٣]، مُخَاطِرُ
(المصدر نفسه: ١٤٠)

وفي الشطر الثاني من البيت الثاني نرى قوله متأثرا بقوله تعالى ﴿وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وبَلَغَتِ الْقُلوبُ الْحَناجِرَ﴾ (الأحزاب :١٠)

ثمّ يصوّر لنا في لوحة متكاملة مسيرة الجيش ومواقع القتال:
رَأَى الصِّهْرَ، وَالرُّسْـلَ، الَّذِي هُوَ عَاقِدٌ، يُنَـالُ بِـهِ مَـا لَا تَنَـالُ الْعَسَـاكِرُ
وَأَوْقَـعَ فِي «جُلْبَـاطَ»[٤] بِـالـرُّومِ وَقْعَةً بِهَا «الْعَمْقُ[٥]" وَ"اللُّكَامُ[٦]" وَ"الْبُرْجُ[٧]" فَاخِ
وَأَوْرَدَهَـا بَـطْـنَ «اللُّقَـانِ[٨]" وَظَهْـرَهُ رُ يَطَـأْنَ بِـهِ الْقَتْلَى، خِفَافًـا[٩] حَوَادِرُ[١٠]
أَخَـذْنَ بِأَنْفَـاسِ "الدُّمُسْـتُقِ" وَابْنِـهِ وَعَبَّـرْنَ بِالتِّيجَـانِ مَـنْ هُـوَ عَابِـرُ!
وَجُـ ْ بِـلَادَ "الـرُّومِ" سِـتِّينَ لَيْلَـةً، تُغَـاوِرُ[١١] مَلْـكَ الـرُّومِ، فِيمَـنْ تُغَاوِرُ
تَخِـرُّ لَنَـا تِلْـكَ الْمَعَاقِـلُ سُـجَّداً، وَتَرْمِـي لَنَـا بِالْأَهْـلِ تِلْـكَ الْمَطَامِرُ[١٢]
(أبو فراس الحمداني، ١٩٩٤م: ١٤١)

فتتوالى أسماء المدن التي خضع أهاليها لجيشه مثل "جلباط"، و"العَمق"، و"اللُكام"،

١. الدّمُسْتُق: قائد جيش الروم. (أبو فراس الحمداني، ١٩٩٤م: ١٤٢)
٢. سُلامٌ: موضع عند قصر مقاتل بين عين التمر والشام. (الحموي، ١٩٥٧م: ٦٣٤/٣)
٣. لوى: اشتدّت خصومته وصار جدلا سليطا. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٨٤٨)
٤. جُلْبـاطُ: ناحية بجبل اللكّام بين أنطاكية ومرعش، كانت بها وقعة لسـيف الدولة بن حمدان بالروم. (الحموي، ١٩٥٧م: ١٥٠/٢)
٥. العَمْقُ: كورة بنواحي حلب بالشام الآن وكان أولًا من نواحي أنطاكية. (المصدر نفسه: ١٥٦/٤)
٦. اللُـكام: هو الجبل المشـرف على أنطاكية، وبلاد ابن ليون، والمصيصة، وطرسـوس، وتلك الثغور. (المصدر نفسه: ٢٢/٥)
٧. بُـرْجُ الرّصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية. (المصدر نفسه: ٣٧٣/١)
٨. اللُّقان: بلد بالروم وراء خرشنة بيومين، غزاه سيف الدولة. (المصدر نفسه: ٢١/٥)
٩. خفَّ: أسرع ونشط. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٤٧)
١٠. الحادر: الممتلئ البدن. (المصدر نفسه: ١٦١)
١١. غاور القوم مغاورة، غِوارًا: أغار بعضهم على بعض. والعدوّ القومَ: أغار عليهم. (المصدر نفسه: ٦٦٥)
١٢. المِطْمَرُ: خَيْط البنّاء (ج) مَطامِر. (المصدر نفسه: ٥٦٥)

و"البرج"، و"اللُّقان".

ویواصل أبو فراس قوله إنّ سیف الدولة یشتبک مع الدمستق وراء مرعش فیوقع به ویهزم جیشه ثمّ یقتل "لاون" البطریق ویأسر قسطنطین بن الدمستق الذی ظلّ فی أسره حتی مات، فیقول واصفاً فرار الدمستق وضربه فی وجهه:

وَولّی عَلی الرَّسْمِ «الدُّمستق» هارِبًا وَفی وَجْهِهِ عُذْرٌ مِنَ السَّیْفِ عاذِرُ

(المصدر نفسه: ١٤٢)

یقول الدکتور یوسف بکّار:

«عظم الأمر علی الدمستق للذی حدث عام ٣٤٢ق، فأراد أن یثأر، وجمع عام ٣٤٢ق عساکر من الرّوم والأرمن والروس والصقلب والسّلاف، وقصد الثغور، والتقی مع سیف الدولة عند "الحدث" فکانت معرکة شدیدة، کتب لسیف الدولة أن ینتصر فیها نصراً مؤزراً، وانهزم الروم وقتل منهم وممّن معهم خلق عظیم، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وکثیر من بطارقته، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً» (بکار، ٢٠٠٠م: ٥٦)، وفی هذا قال أبو فراس:

وَحَسْبِی بِهَا یَوْمَ «الأُخَیْدِبِ» وَقْعَةً! عَلَی مِثْلِهَا فِی الْعِزِّ تُثْنَی الْخَنَاصِرُ[1]

عَدَلْنَا بِهَا فی قِسْمَةِ الْمَوْتِ بَیْنَهُمْ، وَلِلسَّیْفِ حُکْمٌ فِی الْکَتِیبَةِ جَائِرُ

(أبو فراس الحمدانی، ١٩٩٤م: ١٤٢)

ویصدر أبو فراس فی رومیاته عن کراهیة شدیدة للروم ویصفهم بأوصاف ذمیمة، فهو حین یسأل سیف الدولة المفاداة بأحد قوّاد الرّوم الأسری یصفه بـ"کلب الروم" ویستحثه علی الفداء قائلاً:

أُنَادِیکَ لا أَنِّی أَخَافُ مِنَ الرَّدَی وَلَا أَرْتَجِی تَأْخِیرَ یَوْمٍ إِلَی غَدِ

وَلَکِنْ أَنِفْتُ الْمَوْتَ فِی دَارِ غُرْبَةٍ، بِأَیْدِی النَّصَارَی الْغُلْفِ[2] مِیتَةَ أَکْمَدِ

فَلَا کَانَ کَلْبُ الرُّومِ أَرْأَفَ مِنْکُمُ وَأَرْغَبَ فِی کَسْبِ الثَّنَاءِ الْمُخَلَّدِ

(المصدر نفسه: ٩٧)

وفی قصیدة أخری یصف سیف الدولة بأنّه القرم الذی یحمل أثقال المواقف الصعبة

١. فلان تُثنی به أو إلیه الخَناصر: یبدأ به إذا ذکر أشکاله وأمثاله لشرفه. (مصطفی وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٥٩)

٢. الغُلْف: جمع أغْلَف وغلامٌ أغْلف:لم یُخْتنْ کأقْلَف. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ١٠٠٦/٤)

بخيل ضامرة وسيوف قواطع ورماح ليّنة وجيوش قويّة:

ما زالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ ٱلْقَرْمَ الّذى يَلْقَى الْجَسيمَ وَيَحْمِلُ الْأَثْقَالا
بِالْخَيْلِ ضُمْرًا والسُّيُوفِ قَواضِبًا وَالسُّمْرِ لُدْنًا والرِّجالِ عِجَالا
(المصدر نفسه: ٢٤٣)

ثم ينتقل الشاعر من الغائب إلى الحاضر إذ يقول:

صِفْنا بِخَرْشَنَةٍ وَقَطَّعْنا الشِّتَا وَ بَنُو البَوَادى فى «قُمَيْرَ» حِلالا[1]
(المصدر نفسه: ٢٤٣)

إنّا مضيْنا الصيف وبعض الشتاء بخرشنة والذين كانوا يعيشون فى بوادى قُمير، كانوا بمنزلة أسلحتنا فى الحروب.

والفارس الشاعر أبو فراس يرى سنابک خيل سيف الدولة تطأ أرض الروم فى كلّ مرّة يتجرّأون على مهاجمة أرضه لا يقيهم سهل ولا جبل من غاراته:

قَدْ ضَجَّ جَيْشُکَ، مِنْ طُولِ الْقِتَالِ بِهِ، وَقَدْ شَكَتْکَ إِلَيْنَا الْخَيْلُ وَالإِبِلُ!
وَقَدْ دَرَى الرُّومُ، مُذْ جَاوَرْتَ أَرْضَهُمُ أَنْ لَيْسَ يَعْصِمُهُمْ سَهْلٌ، وَلا جَبَلُ
(المصدر نفسه: ٢٥٧)

وفى قصيدة أخرى يبرز الجانب الدينى ويرى أنّ الكفر مغلوب والإسلام غالب حيث يقول:

فَقُلْ لِـ «ابْنِ فُقَّاسٍ[2]" دَعِ الْحَرْبَ جَانِبًا فَإِنَّکَ رُومِيٌّ، وَخَصْمُکَ مُسْلِمُ
فَوَجْهُکَ مَضْرُوبٌ، وَأُمُّکَ ثَاكِلٌ وَسِبْطُکَ مَأْسُورٌ، وَعِرْسُکَ أَيِّمُ!
وَلَمْ تَنْبُ[3] عَنْکَ الْبِيضُ فِى كُلِّ مَشْهَدٍ وَلَكِنَّ قَتْلَ الشَّيْخِ فِينَا، مُحَرَّمُ
(المصدر نفسه: ٢٩٥)

وفى قصيدة أخرى يصوّر الشاعر خوف الدمستق وبطولة فرسه ويوضح أنّه لم ينجُ إلاّ بجواده الأدهم، فلو لم ينقذه فرسه من بطشنا كنّا نجعل القيد فى رجله، فهو نجا ولكن حماته توزّعوا بين مصفودين بالأغلال ومجروحين بالأسياف والأرماح، ثمّ يذكر أسماء الذين أُسِروا ويذكر إثخان المسلمين فى أهل خرشنة قائلًا:

١. الحُلّة: السلاح (ج) الحِلال. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ١٩٤)
٢. ابن فُقّاس: نقفور فوكاس. (أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٢٩٥)
٣. نبا السيف عن الضّريبة: لم يصبها. (المصدر نفسه: ٨٩٩)

لَمَّا بَرَزْنَا «لِلدُّمُسْتُقِ»، مَرَّةً وَرَأَى بَوَادِرَ خَيْلِنَا كَالْأَسْهُمِ
طَلَبَ النَّجَاءَ بِنَفْسِهِ، فَتَحَكَّمَتْ فِي جَيْشِهِ الْأَسْيَافُ أَيَّ تَحَكُّمِ
لَوْلَا الْجَوَادُ الْأَدْهَمُ النَّاجِي بِهِ أَضْحَتْ قَوَائِمُ رِجْلِهِ فِي الْأَدْهَمِ
وَلَئِنْ نَجَا؛ فَرِجَالُهُ وَحُمَاتُهُ مَا بَيْنَ مَصْفُودٍ، وَبَيْنَ مُكَلَّمِ
قُدْنَا «الْبُرُطْسِيسَ» اللَّعِينَ وَجِيءَ بِا «لْـ ـعِشْنِيطِ»[1] مَخْضُوبَ الْجَوَانِبِ بِالدَّمِ
سَلْ أَهْلَ «خَرْشَنَةٍ» تُخْبِكَ نِسَاؤُهُمْ كَمْ ثَاكِلٍ مِنْهَا، وَكَمْ مِنْ أَيِّمِ[2]؟!

(المصدر نفسه: ٣١٤)

وفى قصيدة أخرى يكتب إلى سيف الدولة من الأسر فى بلد الروم ويُعلمه بخروج الدمستق إلى الشام ويناديه أن يستعدّ لمواجهته ويسأله تقديم الفداء فيقول داعيا إلى الغضب لدين الله:

«سَيْفَ الْهُدَى» مِنْ حَدِّ سَيْفِكَ يُرْتَجَى يَوْمٌ يُذِلُّ الْكُفْرَ لِلْإِيمَانِ
هَذِي الْجُيُوشُ، تَجِيشُ نَحْوَ بِلَادِكُمْ مَحْفُوفَةً بِالْكُفْرِ وَالصُّلْبَانِ
غَضَباً لِدِينِ اللهِ إِنْ لَا تَغْضَبُوا لَمْ يَشْتَهِرْ فِي نَصْرِهِ سَيْفَانِ
حَتَّى كَأَنَّ الْوَحْيَ فِيكُمْ مُنْزَلٌ وَلَكُمْ تَخُصُّ فَضَائِلُ الْقُرْآنِ

(المصدر نفسه: ٣٤٢)

ويردّ بقصيدة جدلية على الدمستق لمناظرة جرت بينهما حينما قال له الدمستق: «إنّما أنتم كتّاب ولستم بأصحاب سيوف ومن أين تعرفون الحرب؟ يردّ عليه أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستّين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟» (البستانى، ١٩٦٨م: ٣٧٢)

على أثر هذه المناظرة التى أنكر الدمستق على العرب خصائص الحرب ومناقبها، «ازدحمت فى صدر أبى فراس ذكريات الحروب وهو فى أسره وما كسب المسلمون فيها من النصر على الروم فراح يذكر –فى قطعة واحدة– مفاخر الحمدانيين فى الحروب البيزنطية وأسرى الروم [...].» (المحاسنى، ١٩٦١م: ٣٠١)

إنّه يعير الدمستق ويزجره ويقدم صورته فى البيت الأوّل بأنّه ضخم العنق:

١. البُرُطْسيس والعِشْنيط: من قوّاد الروم. (أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٣١٤)
٢. الأيِّم: العَزَب، رجلا كان أو امرأة، تزوّج من قبل أو لم يتزوّج. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٣٥)

أَ تَزْعَـمُ؛ يَا ضَخْـمَ اللَّغَادِيـد[١]، أَنَّنَا وَنَحْنُ أُسُودُ الْحَرْبِ، لَا نَعْرِفُ الْحَرْبَا؟
فَوَيْلَكَ؛ مَنْ لِلْحَرْبِ إِنْ لَمْ نَكُنْ لَهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُمْسِي وَيُضْحِي لَهَا تِرْبَا؟
لَقَـدْ جَمَعَتْنَا الْحَـرْبُ مِنْ قَبْـلُ هَذِهِ فَكُنَّـا بِهَـا أُسْـداً؛ وَكُنْتَ بِهَـا كَلْبَا
فَسَـلْ "بَرْدَسًـا" عَنَّا أَبَـاكَ وَصِهْرَهُ وَسَلْ آلَ «بَرْدَالِيسَ» أَعْظَمَكُمْ خَطْبَا
وَسَلْ "قُرْقُوَاسًا" وَ"الشَّمِيشَقَ" صِهْرَهُ وَسَلْ سِـبْطَهُ «الْبِطْرِيقَ» أَثْبَتَكُم قَلْبَا
بِأَقْلَامِنَـا أُجْحِـرْتَ٢ أَمْ بِسُـيُوفِنَا؟ وَأُسْـدَ الشَّرَى قُدْنَا إِلَيْكَ أَمِ الْكُتْبَا؟

(أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٣١)

فحشد أبو فراس فى هذه الأبيات سلسلة من أسماء الأماكن الرومية ومن أسماء قواد الروم، وبطارقتهم، وفرسـانهم الذين هزموهم، مسـتهلًّا قصيدته بهذه الصورة الساخرة للدمستق حين وصفه بأنّه "ضخم اللغاديد" و"كلب" مشيرًا إلى احتقاره ووضاعته.

وفى إحدى رومياته يصف لقاءه بالدمستق، فالدمستق يعيد النظر فيه مرة بعد أخرى كأنّه لا يعترف بالأمير الفارس وينكر وجوده، فيخاطبه أبو فراس مدافعًا عن الحمدانيين وعن محاربتهم الروم قائلًا:

تَأَمَّلَنِي «الدُّمُسْتُقُ»، إِذْ رَآنِي، فَأَبْصَرَ صِيغَـةَ اللَّيْثِ، الهُمَامِ
أَ تُنْكِرُنِي؟ كَأَنَّكَ لَسْتَ تَدْرِي بِـأَنِّي ذَلِـكَ الْبَطَـلُ المُحَامِي
أَمَا مِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ عِلْجٌ٣ يُعَرِّفُنِي الحَلَالَ مِـنَ الحَرَامِ؟
وَتَكْنُفُـهُ بَطَارِقَـةٌ تُيُوسٌ٤، تُبَـارِي بِالْعَثَانِـينِ٥ الضِّخَامِ
لَهُمْ خِلَقُ الحَمِيرِ فَلَسْتَ تَلْقَى فَتًى مِنْهُم يَسِـيرُ بِـلَا حِزَامِ

(المصدر نفسه: ٣١٨)

فهو فى هذه الأبيات يرسـم صورة مزرية لـ"لعلج" ويريد به "الدمسـتق" لأنّه أراد فى تأمّلـه أبا فـراس أن يعرّفه الحلال من الحرام ثمّ يهجم على "البطارقة" ويسـتهزئ بهم

١. اللُّغْدُود: اللّحمة بين الحنك وصفحة العنق (ج) اللغاديد. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٨٣٠)
٢. أجحر القوم: دخلوا فى القحط، وأجحر الضبُّ ونحوه: أدخله الجُحْر. (المصدر نفسه: ١٠٨)
٣. العِلْج: كلّ جاف شديد من الرجال، والحمار. (المصدر نفسه: ٦٢١)
٤. التَّيْس: الذّكر من المَعْز والظّباء والوعول إذا أتى عليه حولٌ. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٩١)
٥. العُثْنون: شعيرات طوال عند مذبح البعير والتَّيْس (ج) العَثانينَ. (المصدر نفسه: ٥٨٤)

ويشـــبههم بالتيوس ويشبه فطرتهم بفطرة الحمير ويصف من كانوا فى مجلس المناظرة من الروم باللئام وهكذا يقف أبو فراس منهم موقف السخرية والتهكم.

بلغه أنّ الرّوم قالوا: كلّ من نأســره من المسلمين نسلبه ثيابه وسلاحه إلا أبا فراس، فقال فى إحدى قصائده التى يبدأها بذكر إبائه وعذابه المكتوم، ووصف حبيبته وحواره معها ثمّ تفاخره وتبريره للأسر، مفتخرا:

يَمُنُّــونَ أَنْ خَلَّــوا ثِيَــابِى؛ وَإِنَّمَــا عَلَــىَّ ثِيَــابٌ، مِنْ دِمَائِهِــمُ، حُمْرُ
وَقَائِمُ سَــيْفِى، فِيهِمُ، انْدَقَّ نَصْلُهُ وَأَعْقَابُ[1] رُمْحِى، فِيهِمُ، حُطِّمَ الصَّدْرُ

(المصدر نفسه: ١٦٥)

ملامح الائتلاف والاختلاف بين الشاعرين

إنّ أبا تمام عاصر الخلافة العباســية فى عصرها الذهبى واستطاع أن يصور فى شعره هزيمة الروم أمام العباســيين تصويرا رائعا، ووصف معارك الثغور وحصار القسطنطينية وخليج البســفور، وافتنّ فى تصوير الحالة النفســية للروم وما أصابهم من خوف وفزع، وســخر من (منويل) قائد الروم المنهزم، وخاطبه خطابا ينطوى على الســخرية؛ وشبّه تيوفيل إمبراطور بيزنطة بالكلب الذى يحرّك ذنبه مداراة للقائد العباسى.

أبوتمام جاء بأسماء الأمكنة الرومية فى شعره، مثل «درولية»، و«فروق»، و«صاغرى»، و"أوقضى»، و«ميمذ»، وغيرها، وذكر أسماء خاصة من أسامى الحصون من مثل «الحمّة البيضاء»، و«القفل»، و«أكشوثاء»، وغيرها.

وتُطــلّ علينــا ثقافته الدينية فى ثنايــا بعض قصائده التى نظمهــا فى وصف حروب العباسيين مع الروم، فالحرب فى رأيه هى بين الدين والكفر وليست بين المسلمين والروم.

ويبــدأ الشــاعر كل هذه القصائد بمقدمة غزلية، غير قصيدتــه التى مدح بها المعتصم واصفا معركة عمورية لأنّه كان خليفة حرب وقتال.

أما أبو فراس الحمدانى، فكانت له تجربة خاصة مع الروم، لأنه وقع فى الأسر وسيق إلــى بلادهم، واتصل بهم عن قرب وأبان فى رومياته كراهية شــديدة للروم ورســم لهم صورا مُزرية، ووصفهم بالكفر، والشرك.

١. العَقِبُ: آخر كلّ شيء، والمراد فى البيت مؤخر الرمح (ج) أعقاب. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٨٢٩/٤).

وصوّر الشاعر المناظرات التى جرت بينه وبين الدمستق ملک الروم، ورسم الشاعر صورا مزرية للبطارقة وسخر من الدمستق فوصفه بأنه "ضخم اللغاديد" فالشاعر نظر إليهم نظرة إزدراء وشبّه الدمستق بالعلج والكلب وشبّه البطارقة بالتيوس واستحضر كثيرا من أسماء قواد الروم والبطارقة.

النتيجة

من خلال هذه الدراسة نرى أنّ كلًّا من الشاعرين يرسم لقواد الروم صورا مزرية، أمّا أبوفراس فيعنّفهم أكثر فأكثر، ويسميهم بالكلب والعلج، ويصف الدمستق بضخم اللغاديد ويقرن خلقتهم بخلقة الحمير، وقصائد الشاعرين مليئة بأسماء الأمكنة والأشخاص فلها قيمة تاريخية وجغرافية إضافة إلى قيمتها الأدبية.

إنّ الشاعرين يعتقدان بأنّ هذه الحروب ليست بين العرب والروم بل بين التوحيد والشرک.

أمّا المعانى الحماسية فإنّهما للتعبير عنها يستعينان بالتصاوير الدقيقة وبالتشابيه القريبة، كما أنّ المعانى الدينيّة تطلّ علينا من بين قصائدهما الحربية.

وأمّا أبوتمام فيستهلّ هذه القصائد بالمقدّمة الغزلية أو بالمقدمة الطّللية باستثناء القصائد التى نظمها فى مدح الخليفة المعتصم وقائده الأفشين، لحرص الشاعر على التجديد ولكون المعتصم خليفة حرب وقتال، ولكن أبافراس يباشر الموضوع ولا يتطرق إلى المقدمات الغزلية أو الطللية فى أكثر قصائده.

ومن خلال دراسة هذه القصائد الحربية فى مدح القوّاد خلصنا إلى أنّ فنّ أبى تمام فى شعر الحرب يظهر فى الألفاظ والمعانى، أمّا الألفاظ فالشاعر حريص على الموسيقى اللفظية والإيقاع بالحروف، مما جعله يستعين بـ"التناظر اللفظى" (المحاسنى، ١٩٦١م: ٢٢٥)، الذى نراه فى كثير من الألفاظ التى سُمّيت بها البلاد من مثل: أورثت صاغرى صغارا، وقضت أوْقضى، وغيرهما من الألفاظ.

ويؤلّفان كلاهما بين أجزاء القصيدة بالمحسنات اللفظية من مثل الجناس والتكرار، وبالمحسنات المعنوية من مثل الطباق وغيره، ولكن أباتمام له البراعة والحذاقة فى استخدامهما ويتأثّر الشاعران بالقرآن الكريم فى بعض معانيهما الحماسية.

وأمّا نزعتهما فى وصف الحروب فلأبى تمام نزعة ملحمية فيه ونرى فى قصائده لونًا

جديدًا من ألوان الفن وهو القصص، فالقارئ لا يزال يتبعها حتّى ينتهى منها دون تعب، مع طولها.

أمّا أبو فراس فلا يصف الحروب التى وقعت بين الحمدانيين والروم بشكل ملحمى وتفصيلى لأنّه يرى نفسه أميرا ويريد أن يكون ممدوحا ولا مادحا، وهذا الإحساس يمنعه أن يصف الحروب التى تقتضيه أن يذكر فيها بطولات غيره حتّى ولو كانت بطولات سيف الدولة، فصعب عليه وصف الحروب التى خاضها سيف الدولة إذ يقتضيه ذلك أن يجعل منه بطلا أسطوريا عظيما وينسى نفسه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن منظور. (١٩٨٨م). لسان العرب. نسق وعلق عليه ووضع فهارسه على يسيرى. بيروت: دار إحياء التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع.

أبوتمام، حبيب بن أوس. (١٩٨١م). ديوان أبى تمام. ضبط معانيه، وشروحه وأكملها إيليّا الحاوى. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

أبو فراس الحمدانى، حارث بن سعيد. (١٩٩٤م). ديوان أبى فراس الحمدانى. شرح: خليل الدويهى. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربى.

البستانى، بطرس. (١٩٦٨م). أدباء العرب فى الأعصر العباسية. بيروت: دار المكشوف ودار الثقافة.

بكار، يوسف. (٢٠٠٠م). عصر أبى فراس الحمدانى. راجعه ماجد الحكواتى. الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى.

الحاوى، إيليّا. (١٩٨٦م). فى النقد والأدب (العصر العباسى). ط٢. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

الحموى، ياقوت بن عبد الله. (١٩٥٧م). معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر.

الخطيب التبريزى. (١٩٩٤م). شرح ديوان أبى تمام. قدم له ووضع لهوامشه وفهارسه راجى الأسمر. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربى.

الرازى، محمّد بن أبى بكر. (٢٠٠٦م). مختار الصّحاح. بيروت: المكتبة العصرية.

الشكعة، مصطفى. (١٩٨٦م). الشعر والشعراء فى العصر العباسى. ط٦. لبنان: دار العلم للملايين.

ضيف، شوقى. (١٤٢٧ق). تاريخ الأدب العربى. ط٢. القاهرة: ذوى القربى.

العنبكى، سعيد حسون. (٢٠٠٥م). «قصيدة فتح عمّورية لأبى تمام قراءة أخرى فى بنائها الفنى».

مجلّة المورد. المجلد الثانی والثلاثون. العدد ٤. صص ١٦٠-١٥٢.

عیســی، فــوزی. (٢٠١٠م). صورة الآخر فی الشــعر العربی. لامک: دار المعرفــة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع.

الفاخوری، حنا. (١٩٨٦م). الجامع فی تاريخ الأدب العربی. ط١. بيروت: دار الجيل.

مصطفی، إبراهيم وآخرون. (١٩٧٢م). المعجم الوسيط. ط٢. مصر: دار المعارف.

المحاســنی، زكی. (١٩٦١م). شــعر الحرب (فی العصرين الأموی والعباسی إلی عهد سيف الدولة). القاهرة: دار المعارف.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی